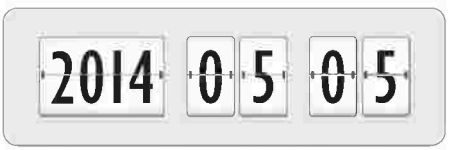

دخلت هيلاري مرتجفة ونطقت: برررر! جليد في الخارج، هل عندك أي تدفئة في هذا المكان؟ ما أشبهك بأبي! كان على الدوام يحاول توفير بضعة قروش.

قمت وعايرت ميزان الحرارة.

قالت: لم أكن إلا مازحة، أنت لا تشبهينه على الإطلاق، حمدًا لله! كيف سميتها؟ انتقال شخصية؟

أومأتُ، سرني أنها كانت قد تعرفت إلى الظاهرة.

ثم التقطت السلسلة من الحلقة التي كنا قد توقفنا عندها في الجلسة السابقة، وراحت تقول وهي تفكر: مع أن وزارتي للخارجية مقيَّمة إيجابيًّا بوجه عام، فإن مراقبين غير وديين يصرون على خلوها من أي اختراقات دبلوماسية ذات شأن، وعلى عدم انطوائها على أي تحسين لقضايا كبرى كذلك الذي أقدم عليه كل من دين آتشيسون، وجورج مارشال، وهنري كيسنجر. أعترض، صحيح أن النزاعات غير القابلة للحل الموجودة عند

قيامي بتولي المنصب مثل تلك المتمادية في باكستان وإيران، العلاقات العربية– الإسرائيلية، وكوريا الشمالية لم تكن مختفية عند مغادرتي لهذا المنصب.

ولكن ظروف العالم السياسي إبان ولايتي كانت– برأيي– أعقد من أن تسمح بحصول اختراقات مثل مشروع مارشال أو زيارة نكسون إلى الصين، ما أخمنه هو أن عددًا كبيرًا من مساهماتي على صعيد القوة الذكية سيستغرق تقييمها وقتًا أطول، وأن شهرتي ستتعزز مع مرور الوقت. بعبارة أخرى، مؤمنة أنا بأن نجاحي أقل ملموسية ولكنه أطول دوامًا.

محلل معهد بروكنغز مايكل أوهانلون قال إنني كنت «صلبة أكثر من مشرقة» في واقع أن انتصارات قليلة تحققت فعلًا إبان مدة شغلي للمنصب. إذا كان الأمر كذلك، لا أظن أن التحلي بـ (الصلابة) أمر سلبي، ما رأيك؟ لعله أفضل من أن تُنعتي بـ (العادية). وهناك آخرون عارضوا أوهانلون. فإرك شميدت – مثلًا – جادل يقول إنني ربما كنت «الوزيرة الألمع والأهم منذ أتشيسون». توافق الجميع على كوني ذات شهرة نجومية، وثمة مسؤول مغفل الاسم أضفى علي لقب نجمة روك كوكبية.

نجمة رقص! أنا بالذات؟ قالت هيلاري ضاحكة: هل تصدقين؟ هل أبدو مثل مايكل جاكسون؟ صراحة– دكتورة– أنا نفسي لا أفهم لماذا أتمتع بمثل هذه الشعبية لدى هذه الأعداد الكبيرة من الناس. في ظل كل هذا الهراء والكلام الفارغ، أجدني معظم الوقت شاعرة كما لو كنت مثل تلك الفتاة القذرة التي لم يكن أحد يرمقها بنظرة ثانية إلى أن جاء بل كلنتون مصادفة.

لماذا تظنين أنك ذات شعبية واسعة يا هيلاري؟

كنت أتساءل عن الأمر، لعله يعود إلى أنني أشاطر الناس همومهم بصدق. فهم يميزون بين ما هو حقيقي وما هو مجرد تمثيل، غير أنني أتساءل أكثر عن افتقاري الشديد إلى الشعبية لدى الكثير من الرجال، قررت أن الأمر ليس

شخصيًّا على الإطلاق، إنه عائد إلى كوني ممثلة لقدر كبير من التغيير بالنسبة إليهم. أحيانًا أفكر أنني لست أنا من يكرهونها، ولكنني أمثل بنظرهم المرأة الرئيسة التي يتعين عليهم أن يعملوا تحت إمرتها، الزوج التي عادت إلى متابعة الدراسة وتكسب من المال أكثر مما يكسبونه، والابنة التي يتمنونها ألا تكون على هذا المستوى من التحرر والاستقلالية.

قلت: أجدت التعبير.

ابتسمت وتابعت: الصراعات بيني وبين باراك أوباما التي تنبأ بها مراقبون كثيرون لم تتحقق قط، ثمة شخص يكتب في مجلة النيويورك تايمز، كتب يقول إننا تولينا قيادة «فريق الأمن القومي الأقل تنافرًا منذ عقود». ذلك جيد، ألا تعتقدين، بالنسبة إلى اثنين سبق لهما أن تعاركا بكل عنف على المنصب نفسه؟ لا يتوفر كثيرون ممن أعرفهم على قابلية مصادقة منافسيهم الناجحين، جلنا مسكونون بالغيرة والرغبة في الانتقام.

سعيدة كانت، سرني أنها لم تسألني عما إذا كنت من أولئك، فلو فعلتْ لما عرفت الجواب.

تابعت هيلاري: على أي حال، كان ثمة حدود لما تمتعت به من نفوذ، جزء كبير من معالجة مشكلات الشرق الأوسط، إيران، والعراق، إبان ولايتي، كان يتولاه إما البيت الأبيض أو البنتاغون، فأوباما مغرم بالتحكم في شؤونه الخارجية الخاصة قدر الإمكان، بعضهم -لن أذكر أي أسماء- قد يعطونه حتى لقب (مهووس تحكم).

فيما يخص القضايا الأخرى، ظل التخطيط وصنع القرار السياسي حبيس البيت الأبيض، حكرًا على الحلقة الداخلية من مستشاري رئيس الجمهورية، يجب أن يكونوا قد أقفلوا الباب ورموا المفتاح بعيدًا، الحلقة لم يسبق لها أن ضمتني قط، قد ترين أن المنصب الأعلى في العالم من شأنه أن يكون فوق مثل

هذه الأمور، لكنه ليس كذلك، فمازال السقف الزجاجي موجودًا في واشنطن- يا دكتورة- كما هو في عالم الأعمال، على الرغم من اعتزازي بنجاحي في إحداث بضعة شقوق فيه.

كذلك كانت بيننا؛ أوباما وأنا، فروق ذات شأن في الرأي. لسوء حظ سوريا، أخفقت في إقناعه بتسليح متمردين سوريين وتدريبهم في عام 2012م، إلا أنني نجحت في التغلب على معارضته الأولية لزيارتي بورما في عام 2011م. كانت الزيارة ممتازة، إذا جاز لي أن أقول، وقد كسبت فيها إحدى أفضل الصديقات في حياتي، أعني آونغ سان سو كيي، إنها بالغة الأهمية بالنسبة إلي، فكرتي الأصلية حول معالجة بؤر التوتر المفتاحية من خلال مبعوثين خاصين تحت إشرافي خابت، غير أني نجحت في إزاحة وزارة التجارة الأمريكية بتمكين وزارة الخارجية من الاضطلاع بدور ريادي في الترويج للمبيعات نيابة عن شركات أمريكية، أعتقد أن الأبعاد التجارية للدبلوماسية وتعزيز التجارة الدولية أمران حيويان بالنسبة إلى أمريكا.

خلفيتي سياسية منتخبة تجلت في إتقاني لفن التعامل مع الناس، في قابليتي لتذكر صلات أولئك الناس الشخصية (هم لا يعرفون أنني أحرص على حفظ أسمائهم قبل كل لقاء)، في زيارة أركان مكاتب وزارة الخارجية فيما وراء البحار، وفي تفهم مشكلات القادة الأجانب المنتخبين. أحيانًا كانت خلفيتي تعمل لغير مصلحتي كما حصل بالنسبة إلى علاقتي الشخصية مع الزوجين مبارك، التي ربما دفعتني إلى المبالغة في الاستمرار بتأييدهما إبان الثورة المصرية، وإلى ما بعد كارثة بنغازي بقيت متمتعة بدعم شخصي حتى من بعض الجمهوريين؛ ففي منتصف عام 2012م خرج الشيخ الجمهوري ليندسي غراهام ليقول إنني نجحت- برأيه- في تمثيل الولايات المتحدة وفي التعامل مع نفسي كما مع الأوضاع بأسلوب بالغ الرقي، وذلك من جمهوري، لا أقل! ملاحظة: أطربني وصفي بالرقي! بالفعل أنا لا أرى نفسي كذلك.

كيف ترين نفسك، إذن، يا هيلاري؟

امرأة مفتقرة إلى الموهبة الفطرية على صعيد اختيار الأزياء أو التصرف مثل نساء المجتمع، لكنها متوفرة على ما يكفي من الذكاء لتدبر أمرها بطريقة ما. ابتسمتُ وقلت: أعتقد أن ذلك تقييم واقعي تمامًا.

تابعت هيلاري: بصرف النظر عما أرتديه من ملبس، على أي حال، فإن وسائل الإعلام مولعة ولعًا استثنائيًّا بمهاجمتي حول ذلك؛ الأسئلة المضحكة التي يطرحها الصحافيون عليَّ عن مصممي الأزياء المفضلين عندي، هل يمكن أن يخطر لك طرح مثل هذا السؤال على رجل؟ ردًّا على ذلك الاستفهام في مقابلة كانت عام 2010م، اشتهرت بوصف ذلك السؤال بعبارة: صفعة مهينة وتافهة موجهة إلي لأنني امرأة.

قلت: أحسنت يا هيلاري! حان وقت قيام أحدهم بمقاضاة وسائل الإعلام على النزعة الجنسوية والسطحية.

بوصفي وزيرة الخارجية الأولى التي تزور بلدانًا مثل (توغو وتيمور الشرقية في جنوب شرق آسيا) في العصر الإلكتروني، أعتقد أن الزيارات الشخصية لاتزال أكثر أهمية من أي وقت مضى، وكما قلت قبيل تركي المنصب: «اكتشفت أنه مثير جدًّا للسخرية في عالم اليوم، حيث نستطيع أن نكون في أي مكان افتراضي، أعداد أكبر من أي وقت مضى من الناس يريدوننا أن نزور بلدانهم، أحدهم قال لي ذات مرة: انظري فقط إلى برنامج زياراتك! لماذا ترهقين نفسك؟ لماذا توغو؟ لماذا جزر كوك؟ ما من وزير خارجية سبق له، بالمطلق، أن كان في توغو». حسنًا، أنا لم أكن مثل أي وزير أو وزيرة خارجية آخر أو أخرى؛ أقدمت على فعل ما اعتقدت أنه الأفضل بالنسبة إلى أمن العالم كله، ومن المصادفات الخالصة أن توغو ممثلة في مجلس الأمن الدولي، حتى إذا لم يسبق لأحد أن سمع بها فإن توغو ملأى ببشر مهمين وذوي شأن.